باب المجلات والدوريات

أهمية النظرية فى علم النفس التجريبى

بقلم روبرت ثاولس[1] Robert H. Thouless

تعتبر لغة النظريات إحدى الوسائل التى يستعين بها العلم فى اكتشافاته . ولكن هناك دائماً ذلك الخطر الماثل فى أنها قد تصبح الشغل الشاغل للباحث ، فتصبح غاية بعد أن كانت وسيلة . فإذا أردنا أن نتحاشى ذلك كان علينا أن نتذكر دائماً أن قيمة النظرية السيكولوجية إنما تتمثل فى أنها توفر علينا الكثير من الجدل النظرى وتيسر لنا سبل التجريب . ذلك أن كثرة الجدل النظرى إنما يترتب على غموض أفكارنا الناجم من سوء استعمالنا للغة .

على أن خير طريق إلى استبعاد إمكانية قيام مثل هذا الجدل ، هو أن نكون فى أذهاننا فكرة واضحة عن ما هى النظرية وما هدفها . وخلاصة القول أن النظرية العلمية طريقة من طرق الكلام يصحبها جهاز من القواعد التى ترمى إلى تمكيننا من فهم نوع من الوقائع والمؤازرة بينها . وتفصيل ذلك أن لكل علم جانباً يمكن تسميته بالجهاز الأولى Primary system على حد تعبير رمسى Ramsey[2] وفى حالة علم النفس يتضمن هذا الجهاز الخبرات وسلوك الكائنات . والنظرية السيكولوجية إن هى إلا جهاز ثانوى secondary system لإدخال النظام فى الجهاز الأولى وجعله قابلا لأن نفهمه ونسيطر عليه ونتنبأ بمستقبله . وتحتوى لغة الجهاز الثانوى على اصطلاحات (من قبيل « العادة » و « الاستهداف »...) لا تتضمنها اللغة التى تقتصر على محاولة وصف الجهاز الأولى . ولا تكفى كل لغة أيا كان نوعها لتحقيق مهمة الجهاز الثانوى ، ذلك لأن خاصيته الأولى أن

(١) محاضرة ألقاها الكاتب فى الاجتماع السنوى لجمعية علم النفس البريطانية ، فى أول أبريل سنة ١٩٥٠ . ونشرت فى مجلة :
"The British Journal of Psychology", vol. xli, parts 1 &2 Sept 1950

(٢) "The Foundations of Mathematics", Ramsey, F. P. , 1931, London

يقودنا إلى توقع ما عساه يحدث أو لا يحدث فى الجهاز الأولى ، أى أنه يمكننا من توقع حدوث وقائع معينة واستبعاد إمكانية حدوث وقائع أخرى . ومن الجدير بالذكر أن الجانب الاستبعادى للنظرية هو الطريق إلى اختبار مدى صدقها .

على أننا قد نصادف أكثر من لغة نظرية فى استطاعتها أن تقودنا إلى توقع نفس المجموعة من الوقائع . وعندئذ يلزمنا أن نحكم لكل منها بالصدق ، ولو أن إحداها قد تكون أكثر ملاءمة لحاجة الباحث لأنها أكثر تحقيقاً لمبدأ الاقتصاد الفكرى من الأخريات ، وهو المبدأ الذى يقضى بأن نفسر الأحداث بافتراض أقل عدد ممكن من الأسباب.

على أن خصائص اللغة التى نستخدمها فى الجهاز الثانوى لا تكفى لأن تمدنا بكل ما نتنبأ به فى الجهاز الأولى . إنما تساهم معها فى أداء هذه المهمة مجموعة من القواعد (البديهيات أو المسلمات الرئيسية للعلم وقوانينه) التى تؤلف جزءاً من الجهاز الثانوى . وفى اعتقادى أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن علم الفيزيقا ، وهو على درجة كبيرة من التقدم ، يعتمد فى تحديد تنبؤاته على لغته أكثر مما يعتمد على عدد من القواعد . إلا أن علم النفس من ناحية أخرى مضطر أن يعتمد على اللغة النظرية التى يختارها ، رغم تأخره إلى حد كبير إذا قيس بالفيزيقا ، وذلك لأنه لا يملك من المسلّمات والقوانين إلا النزر اليسير . وثمة بضع مسلّمات أو قوانين لاتزال فى دور الإعداد والاختبار لمعرفة مدى مطابقتها لما هو حادث فى الجهاز الأولى ، حتى يتقرر قبولها أو رفضها ، وهذه تسمى فروضاً hypotheses

ويجدر بنا ها هنا أن نؤكد أهمية هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن الفرض المفيد حقا هو الفرض الذى يمكن اختبار بطلانه بالتجربة ، ذلك لأن بعض مؤلفى النظريات درجوا على أن يعتبروا من مزايا الفروض التى يقدمونها أنها تتفق وأى نوع من الوقائع . وهم يكسبون فروضهم هذه المرونة التى لا حد لها بطرق مختلفة . فأصحاب فرض « المنبه والاستجابة » يسارعون إلى التسليم « بمنبه داخلى » ما ، كلما ظهر أمامهم عنصر من عناصر السلوك لا يتسبب عن منبه ظاهر . كذلك أصحاب التحليل النفسى يكسبون نظرياتهم ومشتقاتها مرونة لا نهاية لها باستخدام فكرة « التعويض » استخداما لا ضابط له . فتراهم يضعون نظرية عما عساه يحدث فى موقف معين . فإذا وقع ما تنبأوا به فقد أثبت النظرية . وإذا لم يقع قيل إن هناك عملية تعويضية توجه السلوك فى اتجاه مضاد . ومن الجدير بالذكر أن النظرية التى

أو الفرض الفرويدى القائل بتعليل أعراض الاضطرابات الذهنية بالكبت . إلا أن هذين الفرضين علميان بكل معانى الكلمة لأنهما يقبلان اختبار البطلان ولو أنه بفروض أن يكون معقداً تعقداً كبيراً . ولا جدال فى أن هناك مزايا كثيرة للعمل لا بد أبسط من ذلك بكثير إذ أن اختبارها لن يكلفنا عناء ولا مشقة ، ولكن هذا لا يعنى أن الفروض البسيطة أكثر خصوبة من الفروض المعقدة .

على أننا قد نضيع وقتنا هباء إذا نحن لم نفرق بين مشكلات اللغة ومشكلات الوقائع ، من استخدامنا لأية لغة نظرية . ومن الأمثلة الشائعة فى هذا الصدد تلك المشكلة الزائفة مشكلة حقيقة وجود العوامل التى يصل إلى القول بها الآخذون بمنهج التحليل العاملى . وهذه حالة خاصة لموقف عام يقفه الباحثون فى مختلف الميادين عند ما يتساءلون عن حقيقة وجود الموضوعات المشار إليها فى لغة العلم النظرية ؛ « هل الإلكترونات ذات وجود واقعى أم أنها مجرد نسيج منطقى ؟ » « هل الذاكرة وظيفة موحدة قائمة فى الذهن ؟ » هل للذهن نفسه وجود واقعى ؟ » . وفى اعتقادى أن وضع الأسئلة على هذه الصورة خطأ. لأن مهمتنا ليست النظر فى وجود شىء ما ، بل استخدام كلمة معينة والنظر فيما إذا كانت تؤدى دوراً مفيداً فى جهازنا النظرى ، أى تربط بين وقائع الجهاز الأولى .

ويلاحظ أن هذه المشكلة الزائفة تعترض سبيلنا بوجه خاص عندما نستخدم أسماء فى جهازنا الثانوى . فإننا عند ما نستخدم أسماء نميل إلى التساؤل عن حقيقة مسمياتها . ويرى بعض المتخصصين فى مناهج العلوم أن الطريق إلى تحاشى الوقوع فى هذه الزلة إنما يكون باستبعاد الأسماء من نظامنا النظرى . ويخيل إلى أن هذا الاتجاه ينطوى على شىء من التعسف ، ولا حاجة لنا به ، ولا فائدة ترجى منه . فأما أنه ينطوى على تعسف فذلك لأنه من العسير علينا أن نتكلم دون أن نستخدم أسماء . وأما أننا لا حاجة لنا به فذلك لأن الأسماء عناصر غير ضارة فى بناء جهازنا الثانوى إذا ثبتنا على مقاومة الميل إلى مناقشة وجود الموضوعات التى تشير إليها الأسماء . وأما أنه اتجاه لا خير فيه فذلك لأنه لا يستطيع بنفسه أن يحملنا على تحقيق الغاية المنشودة وهى استبعاد التورط فى مثل هذه المشكلة الزائفة ؛ إذ أننا نستطيع أن نثير هذه المشكلة نفسها من خلال استخدامنا لأجزاء الكلام الأخرى ، كالأفعال والصفات . فقد نستبعد كلمة « الذاكرة » ونستبدل بها كلمة « التذكر » . ومع ذلك فلن يكون فى هذا ما يمنعنا من النظر فيما إذا كان النشاط

المشار إليه بكلمة « تذكر » نشاطاً له وجود واقعى فعلا . إنما الشىء الوحيد الذى يمنعنا من هذا النقاش وأمثاله هو تصميمنا الواضح ، وعندئذ نستطيع أن نستخدم الأسماء دون أن نخشى الزلل .

على أننا نستطيع أن نواجه موقفنا من هذه المشكلة مواجهة مباشرة ، فنتساءل هل هناك فائدة من مناقشتنا لما إذا كان ثمة موضوعات ذات وجود واقعى تقوم وراء الأسماء التى نستخدمها فى جهازنا النظرى ؟ وماذا يمنع من أن تكون هذه المشكلة عظيمة الجدوى ؟ والجواب على ذلك ، هو أننا لا ننكر أن بعض الأسئلة التى تُلقى حول وجود المسميات تكون عظيمة الفائدة . كالسؤال عن واقعية الموضوعات التى يتحدث عنها مريض مصاب بالهذاء ، أو عن واقعية الصورة التى تكونها عدسة . ولكن السؤال عما إذا كان « العامل الذهنى » له وجود واقعى لا يدخل فى نطاق هذا النوع ، بل يدخل ضمن المشكلة الزائفة التى يثيرها الخلاف حول الواقعية والمثالية ، عندما يتساءل البعض قائلا « هل يوجد عالم فيزيقى فعلا ؟ » وإنما نحكم على هذه المشكلة بالزيف والبطلان لأنه ليس ثمة « اختلافات يمكن التحقق من صدقها » بين توقعاتنا إذا نحن أجبنا على هذا السؤال بالإثبات أو بالنفى . فنحن نرى من حولنا أشياء مادية . ونستطيع أن نتساءل : أنستطيع أن نلمسها إذا نحن لم نرها ؟ وهل تظل هذه الأشياء تؤثر فى الصورة الفوتوغرافية إذا لم يكن ثمة من ينظر إليها ؟ وهل ينتابها التغير فعلا إذا لم توضع تحت الملاحظة وهكذا وهكذا . . . ولا شك أننا نعرف الإجابة عن هذه الأسئلة ، ولن يختلف على هذه الإجابة ذو النظرة المثالية الذاتية الذى ينكر واقعية الأشياء المادية ، والواقعى الذى يؤكد وجودها . أى أن هذه الأسئلة التى يمكن وضعها موضع الاختبار لا يمكن أن تحسم مشكلة حقيقة الوجود . وهذه هى الخاصية الأولى للمشكلة الزائفة ، أنها لا تحسمها حلول يمكن اختبار صدقها أو بطلانها .

ومن هذا القبيل مشكلة وجود « الذاكرة » أو وجود « العامل العقلى العام » أو « النفس » . وقد نستطيع أن نتساءل مثلا عما إذا كان العامل العقلى موروثاً وعما إذا كان متمركزاً فى أحد أجزاء المخ ونسترسل فى أسئلة أخرى من هذا القبيل ، فإن الإجابة عن هذه الأسئلة من شأنها أن تثرى مصطلح « العامل العقلى العام » ، ولكن مهما زدناه ثراء فإننا لن نستطيع أن نتكل إلى القول بأننا قد اكتشفنا أن لهذا العامل وجوداً واقعيا . إن العامل الذهنى العام فكرة كلية تشير إلى مجموعة

من الوقائع المعروفة وتربط بينها . وفى الإمكان دائماً أن نجد وقائع جديدة نضمها إلى مضمون هذه الفكرة ، ولكننا لن نجد واقعة واحدة جديدة ولا مجموعة من الوقائع تستطيع أن تحملنا على القول بأن موضوع هذه الفكرة الكلية قد تبين أخيراً أنه موجود وجوداً واقعيا .

تلخيص

مصطفى سويف

ديناميات الجماعة

بقــلم

جوردن تيــلر[1] Gordon R. Taylor

من الكلمات المأثورة عن إرنست كاسيرر E. Cassirer قوله إن تقدم العلم إنما يتم غالباً على أساس حدوث تغير فى طبيعة ما نعتبره موجوداً فعلا . فلم يكن من الميسور مثلا أن تعقد البحوث فى الذرة قبل أن تصبح فكرة وجود الذرات مقبولة . ولم يكن من الممكن أن يقوم علم يدعى علم النفس قبل أن يقبل الرأى العام العلمى القول بأن الانفعال والإرادة ظاهرتان موضوعيتان . ومثل هذا القول يصدق أيضاً على علم النفس الاجتماعى الذى لا يزال يكافح من أجل الاعتراف بمقولاته الرئيسية ، ويبذل كل جهد مستطاع لصياغة مقولات أخرى جديدة .

ولعل أشد هذه المقولات أو الأفكار الكلية خصوبة فى هذا الميدان فكرة الجماعة ، وكثيراً ما تظهر الآن كلمة الجماعة وعبارة ديناميات الجماعة فى مؤلفات المختصين فى هذا الفرع من المعرفة . ومع ذلك فالرأى الشائع ، خارج دائرة المختصين ، يكاد يجمع على القول بأن سلوك الجماعة لا يزيد على أن يكون مجموع سلوك أفرادها . فإذا جمعنا مثلا بين عشرة أشخاص خجلين فستتكون لدينا جماعة تمتاز بالخجل . على أن مشاهدة الواقع فى شىء من الدقة تدل على أن هذا الرأى غير صحيح . فى بعض الظروف ، إذا اجتمع عشرة أشخاص يتصف كل منهم بالخجل السوى ، فإنهم قد يصبحون جماعة تمتاز بالشجاعة والإقدام .

ظواهر جماعية .

ويحسن بنا أن نبدا بذكر بعض الظواهر الجماعية التى تحتاج إلى تفسير . من ذلك مثلا ما يلاحظ من أن الناس يسلكون فى بعض الجماعات سلوكاً مختلفاً عن سلوكهم فى جماعات أخرى : ومن أشهر الأمثلة على ذلك الأطفال الذين

---

(١) نقلا عن "Science News", No 16, June 1950: Penguin Books

يكونون فى البيت عصاة متمردين بينما هم فى المدرسة ودعاء مطيعون . وإليك ظاهرة جماعية ثانية ، ظاهرة « البحث عن كبش الفداء » scapegoating حيث تنهال الجماعة فجأة باللوم على أحد أعضائها محملة إياه وزر متاعبها ثم تحاول التخلص منه . أما الظاهرة الثالثة التى نوردها فننتقيها من بين بضع تجارب أجريت فى الولايات المتحدة أثناء الحرب الأخيرة . كانت السلطات قد عزمت على أن تحث الأمهات على أن يعطوا لأطفالهم عصير البرتقال وزيت كبد الحوت . فخصصت لذلك محاضرة تستغرق خمساً وعشرين دقيقة يلقيها أحد علماء النفس على ست من الأمهات ويتناول فيها بالحديث أهمية الفيتامين ، وفى الوقت نفسه وجهت ست أمهات أخريات إلى الاشتراك فى مناقشة جماعية يقودها عالم نفس اجتماعى انتهت باتخاذ قرار جماعى بأن الأمهات سوف يقدمن هذا الغذاء إلى أطفالهن . وبعد أربعة أسابيع استقصى المساعدون نتيجة التجربة فتبين أن نصف المجموعة الأول نفذ التعليمات فعلا أما المجموعة الثانية فكلها قد نفذت . وأعيدت التجربة على جماعات كثيرة واتخذت قرارات أخرى مختلفة وظلت النتيجة ثابتة . أى أن الفرد يتقيد بالقرار الذى يتخذه وهو عضو فى جماعة أكثر مما يتقيد بقرار يتخذه منفرداً . فما السبب فى ذلك ؟ هذه أيضاً ظاهرة جماعية تستحق البحث .

وثمة مسائل أخرى كثيرة من هذا القبيل . فلماذا تحمل إحدى الجماعات روحاً معنوية أعلى مما تحمل الأخرى ؟ ولماذا تنحل الجماعة أحياناً ؟ وما طبيعة الزعامة ؟ و . . . إلخ .

ومن المحقق أن ديناميات الجماعة ليست بعد فى الوضع الذى يمكنها من تقديم تفسير يلقى القبول لدى الجميع لما يحدث داخل الجماعات . ومع ذلك فيجب أن نعترف بأن عالم النفس الاجتماعى قد انتقل من مرحلة الملاحظة الساذجة وأصبح يعمل بواسطة معان كلية تمكنه من أن يقدم وضعاً متماسكاً لما هو حادث ، بل وأن يقدم من حين لآخر بعض التنبوءات العابرة . وهذه المعانى التى يستخدمها على عدة أنواع ، فمنها المعانى الوظيفية كالتواصل communication والتماسك cohesion والزعامة ، ومنها المعانى الارتقائية كتلاقى الاتجاهات convergence والتحرك locomotion ، ومنها المعانى البنائية كالدور role والنمط السوسيومترى sociometric pattern .

على أننا نستحش أن نبدأ بالكشف عن القوى التى تحرك الجماعه وتثير الحيويه فيها .

التحبيذ Approval

إذا كانت هناك حقيقة لا يرقى الشك إليها فهى الحاجة الملحة التى يحملها كل فرد سوى ، الحاجة لأن يصبح عضواً فى جماعة تناسبه ، أى جماعة يلقى فيها القبول والتحبيذ . ونجد الاختبار التجريبى لهذه الحقيقة فى بحث لومبارد G. F. F. Lombard ومايوه E. Mayo اللذين درسا قوائم الغياب والشغب فى مصانع الطائرات فى كليفورنيا . فقد اتضح لهما أن هذه القوائم قد اختص بها أفراد فشلوا فى أن يجدوا القبول فى جماعة وثيقة الارتباط داخل المصنع ، وهؤلاء الأفراد المنعزلون هم الذين انتهى بهم الأمر إلى ترك المصنع سويا . وقد أمكن بالفعل تقديم أحد الأفراد المنعزلين دائمى التخلف عن الحضور مع الجماعة ، أمكن تقديمه إلى فريق من العمال داخل أحد المصانع ومساعدته على أن يجد المكان الملائم له ، فإذا به ينقلب إلى فرد راض عن عمله مخلص له . كذلك قام سكوت J. F. Scott وفوكس J. B. Fox بدراسة مماثلة فى مدينة أخرى ، فوصلا إلى النتائج ذاتها .

ومن الدراسات الهامة فى هذا الميدان الدراسة التى قام بها ثراشر F. M. Thrasher لعدد كبير من عصابات المراهقين فى شيكاغو . فقد تبين له أن هؤلاء المراهقين فتيان فشلوا فى أن يجدوا جماعة من جماعات البالغين تمتصهم ، أى توجد لهم المكان الملائم بداخلها ، ولذلك فقد عمدوا إلى خلق جماعاتهم الخاصة . أى أنهم كانوا بحاجة إلى جماعة تحتضن نشاطهم الذى يحبذونه كمراهقين ، ويجدون بداخلها القبول والتقدير لمهارتهم فى إنجاز نشاطهم هذا .

والشىء الذى يهمنا باعتبارنا دارسين لديناميات الجماعة ، كون الأشخاص يجدون الأهمية كل الأهمية فى الاحتفاظ بتحبيذ أعضاء جماعتهم لأعمالهم وآرائهم ، ونقصد بأعضاء جماعتهم الأشخاص الذين يلتقون بهم دائماً وجهاً لوجه والذين يؤلفون بيئتهم السيكولوچية الحقة ، وأقل من ذلك بكثير اهتمامهم بإرضاء الأفراد خارج هذه الجماعه .

العـــداوة Hostility

ينفق الصبى الملتحق حديثاً بإحدى المدارس أيامه الأولى فيها باحثاً ومنقباً لكى يكتشف القواعد غير المكتوبة والمكتوبة ، والصبيان الذين لا يجدى معهم الهجوم والجبناء والحلفاء . ويظل يشعر بالقلق وعدم الأمن والطمأنينة حتى يتم له « اكتشاف المجال » . وكل عضو جديد فى أية جماعة يشغل أول ما يشغل بمثل هذا النشاط الاكتشافى . فهو يريد أن يعرف موقفه بالضبط من سائر أعضاء الجماعة ، وهذا صحيح مهما كانت أغراض الجماعة واضحة ومحددة . وهذا من شأنه أن يؤدى بنا إلى نتيجة عامة تصدق على الجماعات مؤداها : أن كل عضو يعمل دائماً فى نطاق حاجاته وآماله جميعاً ، فلا يقتصر على العمل فى نطاق مهمته الرسمية فى تحقيق هدف الجماعة . ويلاحظ أننا نقول « حاجاته » ولم نقل « الحاجات الإنسانية » وذلك لأن الأفراد المختلفين يختلفون فى درجات اهتمامهم بالاتجاه إلى أنماط مختلفة من الإشباع . ولكى نوضح هذه النتيجة العامة نقول : إننا درجنا على اعتبار أن الناس يتحركون دائماً وراء هدفهم الرسمى الواضح . فأصحاب الأعمال مثلا يرون أن العمال ما جاءوا إلى المصنع إلا ليحصلوا على قدر معين من النقود ولذلك يدهشهم أن يروا هؤلاء العمال أنفسهم يقررون الإضراب لمسألة تتعلق بالكرامة . كذلك يقرر أصحاب الأعمال أنهم لا يعنيهم إلا الربح والإنتاج الملائم فإذا قيل لهم إن هذا الهدف يمكن أن يتحقق على صورة أفضل إذا أعطينا للعمال حق الاشتراك فى توجيه العمل ، وجدنا معظمهم ينفرون من مجرد الحد من سلطتهم ، فهذا يرفض لأنه يقلل من نفوذه ، وذاك يرفض « لأنه يريد أن يبدو صعب المراس » وهكذا . وعندئذ يطيب لنا أن نعتبر هذه المواقف شذوذاً لنظل مستمسكين باعتقادنا فى أن السلوك بطبيعته رشيد واع لا تشوبه شوائب العاطفة والانفعال .

أما المبدأ الذى نقول به فيقرر على الضد من ذلك أن هذه العوامل « غير الرسمية » أو غير الصريحة حاضرة دائماً ، ويقرر كذلك أنه يلزمنا العمل على حصرها والكشف عن كيفية ارتباطها بعضها بالبعض و « بالدوافع الصريحة » حتى نتمكن من تحديد السلوك .

وخلاصة القول أنه ليس من المبالغة فى شىء أن نقول إنه فى معظم الجماعات يوجد كفاح مستتر لإشباع الحاجات . ولا يفتأ أعضاء الجماعة يبحثون عن حلفاء لهم فى هذا الكفاح ويحاولون القضاء على من يرونه عدوا لهم أو غير مجد لأعمالهم ، ولا يقف هذا الكفاح عند حدود التحييد والمكانة فحسب ، بل يتعداهما إلى البحث عن منافذ تنطلق منها القدرات وتشبع الحاجات الخاصة — كالحاجة إلى تأكيد الذات أو الرغبة فى السيطرة . كذلك يحمل الأعضاء إلى الجماعة ضروباً من الحصر والصراع تبذر بذورها خارجها ، أو يتخذون من الجماعة وسيلة لممارسة مشاعر العداوة التى أثيرت فيهم بفعل أحداث وقعت لهم فى جماعات أخرى (كأسراتهم) حيث لم يجدوا الفرصة الكافية لتأكيد ذواتهم أو لإطلاق عدوانهم .

من أجل هذه الاعتبارات يتحتم على عالم النفس الاجتماعى الذى يدرس ديناميات الجماعة أن يقيم وزناً كبيراً لفكرتى العداوة والتحمل support .

الحصر Anxiety

والحصر فكرة أخرى من الأفكار الجوهرية فى الموضوع ، لأنها الصورة التى يكشف فيها الناس عن أن حاجاتهم على وشك أن تلقى الحرمان . وعلى ذلك يمكننا القول بأن أعضاء الجماعات يسلكون بطريقة يبغون منها الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يزيد من مخاوفهم ويحاولون أن يقللوها بقدر الإمكان — إلا أن تصوير الموقف على هذا النحو من شأنه أن يدفعنا إلى مواجهة مشكلة هامة كنت أحاول تأجيلها منذ بدأت هذا الحديث : ألا وهى إلى أى مدى تكون محاولة الأعضاء إشباع حاجاتهم غير الصريحة محاولة واعية مشعوراً بها ؟

من الأمور المتفق عليها الآن أن التمييز الذى اصطنعه فرويد بين الشعور واللاشعور كان مبسَّطاً إلى حد كبير ، وأن هناك تنوعات مختلفة من الشعور واللاشعور . مثال ذلك أنه قد تبين للباحثين أنه من المتعذر على المرء أن يتناول بالتفكير معانى لا يحمل لها أسماء ولا صوراً ذهنيه ، وينحصر جزء من مهمة المحلل النفسى فى مساعدة الأشخاص على التحقق من شخصية الانفعالات التى يمارسونها دون أن يعرفوها ، ومما يستعين به المحلل فى هذا السبيل إمداد هؤلاء

الأشخاص ببعض البطاقات اللفظية . ثم إن فرويد كان يعنى باللاشعور تلك المادة النفسية التى كبتت أو روقبت والتى لم يعد فى إمكان الفرد أن يكشف عنها دون أن يلقى مقاومة عنيفة . ومع ذلك فهناك مواد كثيرة يمكننا أن نفكر فيها بشىء كثير من اليسر إذا قصدنا إلى ذلك ، وكل ما فى الأمر أنها واقعة تحت ركام من الوقائع والأحداث الأخرى . والراجح أنه ليس ثمة فاصل جامد بين هذه المقولات .

ولذلك فإننا عندما نلقى بهذا السؤال ، إلى أى مدى تكون الجماعة شاعرة بالكفاح غير الصريح من أجل التحبيذ والمكانة ، فإن الجواب لا بد وأن يأتى معقداً بعض الشىء . فمن وجهة نظر الأفراد أولا ، نلاحظ أن بعض الأفراد يكبتون حاجاتهم وبالتالى يصبحون غير شاعرين بها ، والبعض الآخرين يشعرون بهذه الحاجات من حين إلى حين ، ولو أنها لن تحتل بؤرة انتباههم فى اللحظة التى يسعون فيها لإشباعها . وأما من وجهة نظر الجماعة ، فقليل من الأعضاء سوف يكونون على وعى بالحوافز العميقة لدى الآخرين ، وليس هذا بسبب أى نوع من الكبت ، ولكن لأنهم أولا وقبل كل شىء لم يقصدوا إلى التفكير فيها أبداً .

على أن هذا التحليل للشعور يلقى ضوءاً كذلك على الطريقة التى تتفاعل بها الحاجات « الرسمية » و « غير الرسمية » . فإذا كان الهدف الرسمى يحتل بؤرة الوعى فإن الحوافز غير الرسمية لا يكون لها إلا تأثير ضئيل ، وكلما قل الانتباه إلى الهدف الرسمى أو حاد عنه ازدادت هذه الحوافز قوة وسلطاناً . والقاعدة العامة أن كلا الجانبين يتدخل فى نفس الوقت ، والسلوك الناتج محصلة تفاعلهما .

وثمة حقيقة أخرى لا بد من إبرازها ، وهى أنه كلما كان هدف الجماعة الرسمى يستدعى نشاطاً جسميا واضح المعالم ، تضاءلت الفرصة أمام الأعضاء للاهتمام بالاعتبارات غير الرسمية . ولذلك فلا يدهشنا أن نجد علماء النفس الاجتماعيين يعتبرون من الأيسر مشاهدة الحصر فى الجماعات التى تنعقد من أجل النقاش . وهذا ما حدا بالباحث بيون W. R. Bion أن ينشىء جماعات ليس لها برنامج رسمى على أساس أن أنواع الحصر والعدوان سوف تطفو على السطح فى مثل هذه الجماعات وبذلك تزداد معالمها وضوحاً ، وهو ما يبدو أنه صحيح .

التفاعل Interaction

تلك هى القوى الرئيسية التى تعمل فى الجماعة . فلننظر أى نوع من العمليات يحدث نتيجة لتفاعلها .

يروى الأستاذ مانهايم Mannheim قصة مجموعة من السيدات ذوات المكانة الممتازة تقدمن أثناء الحرب لأداء أية خدمة وطنية توكل إليهن . فطلب إلى كل منهن على انفراد أن تقوم بتنظيف بعض المستشفيات ، ولكن كلا منهن رفضت القيام بهذا العمل . فما كان من المشرف إلا أن جمعهن معاً ووضع المسألة موضع نقاش عام . وبعد قليل ارتضين القيام بنفس العمل الذى سبق لهن رفضه .

إن هذه القصة توضح النقطة التى سبق أن أثرتها ومؤداها أن هناك أهمية كبرى للتحبيذ الصادر من جماعة الشخص ، أكبر مما يصدر عن الغرباء . ولذلك نجد السيدات مستعدات للتضحية بكرامتهن فى نظر الغرباء لا فى نظر أعضاء جماعتهن . فإذا ارتضين القيام بالعمل جميعاً فلن تخسر أيه واحدة منهن كرامتها .

إلا أننى أرمى من وراء رواية هذه القصة إلى توضيح العملية التى تم بها اتفاقهن . فقد بدأت إحدى السيدات بأن أظهرت بعض الموافقة من هذا النوع : « سوف أقبل إذا قبل غيرى » . فاندفعت الأخريات يُعدن النظر فى موقفهن وتقدمت إحداهن خطوة أخرى نحو التعاون وعاأدت الأخريات إلى تقدير الموقف مرة أخرى — وهكذا انتقلن من موقف سلبى تام إلى موقف إيجابى تعاونى عن طريق سلسلة من التعديلات الصغيرة . ومثل هذه العملية تحدث أيضاً فى حالة انتخاب كبش الفداء .

العمليـــة Process

إن النتائج التى تحدثنا عنها تستغرق وقتاً يسيراً لحدوثها ، ولكن المهم أن الجماعة ينتهى بها الأمر إلى تغيير موقفها . إنها تحتل الآن موضعاً جديداً . فكيف

تم لها بلوغه ؟ يجب علينا أن نبين ذلك مستخدمين فى ذلك مجموعة من المعانى الكلية التى تشير إلى تغيرات جماعية طويلة المدى . (والكلمة الشائعة فى هذا السبيل هى كلمة « عملية ») . على أن تحليل هذه التغيرات لم يتقدم كثيراً ، ولم تتعاون المدارس المختلفة على تعميقه والارتقاء به ، ولكن على الرغم من ذلك نستطيع أن نتحدث عن ثلاثة أو أربعة معان كلية أصبحت ثابتة الأركان إلى حد كبير .

من هذه المعانى معنى الحضارة culture . وهى كما يعرفها عالم الاجتماع تعنى كل الأفكار والعادات والمؤسسات والأساليب والتقاليد والمعتقدات التى نكتسبها من المجتمع الذى نولد فيه . وأكثر التعريفات إيجازاً فى هذا السبيل قولهم إن الحضارة هى « الأرجاع المكتسبة لدى جماعة ما » . ومن الجلى طبعاً أن هناك أوجه شبه كثيرة بين « الحضارة » القائمة فى أية جماعة صغرى وبين حضارة المجتمع الأكبر الذى تقوم هذه الجماعة كجزء منه . ولكن هذا لا يمنع من كون الجماعات الصغيرة قد تنمّى بعض الخصائص الخاصة فتستخدم لهجة خاصة ، وتتعهد تقليداً خاصا بالتفرقة بين بعض الأعمال المشرفة والأعمال غير المشرفة ، وهكذا . ثم إنها ، وهذه مسألة هامة ، تحدد المهام المختلفة للأعضاء — فهذا يعتبر زعيماً وذاك محطا للسخرية . ومن شأن هذه التقاليد أن تستمر قائمة حتى ولو استبدلنا كل عضو بقادم جديد يحل محله ، كما هو الحال فى الجيش . إلا أنها هى أيضاً تنمو وتتغير .

وثمة معنى آخر من المعانى الكلية له أهميته التى لا يمكن إغفالها ، وهو المعنى الذى يشير إلى نمط الرغبة والنفور الذى ينميه أفراد الجماعة فى بعضهم البعض ، ويمكن سبر جوانبه المختلفة بطريقة قياس المسافات الاجتماعية Sociometric ، التى ابتكرها مورينو Moreno . كما أن هذه الطريقة تتيح لنا أحياناً أن نتنبأ ببعض اتجاهات السلوك الفردى : وقد تنبأ مورينو ذات مرة أن التلميذين س ، ص سيفران من مدرستهما وذلك عند ما أظهرت له بحوثه أنهما لا يجدان من يحبهما فى المدرسة ، وفعلا صدق تنبؤه . ذلك أنه من الأوضاع التى لا يمكن تحملها أن يكون الفرد غير مقبول فى جماعته ، وهو ما سبق أن أشرت إليه .

الالتقاء Convergence

ولعل الموضوع الذى فاز بعناية معظم الباحثين هو تلك النزعة الواضحة لدى أبناء الجماعة الواحدة للوصول إلى نمط واحد من الاتجاهات ، ويقترح صاحب هذا البحث استخدام كلمة « التقاء » للإشارة إلى تلك النزعة .

وقد أجرى نيوكوم T. M. Newcomb تجربة شيقة فى موضوع تأثير عضوية الفرد فى جماعة من الجماعات على اتجاهاته ، أجراها فى إحدى المدارس الثانوية الأمريكية . فوضع استخباراً يمكنه من حصر الآراء السياسية لدى الطلبة وتنظيمها فى تدرج يبدأ من « اليسارى » أو الثورى إلى « اليمينى » أو المحافظ ، وجعل يوزعه على الطلاب بعيد ابتدائهم الالتحاق بالمدرسة ثم لمدة ثلاث سنوات متتالية بعد ذلك . وقد تبين له أن الطلبة يكونون محافظين غالباً فى البداية ، إلا أن الاتجاه السائد فى المدرسة هو الاتجاه اليسارى ، فكان يلاحظ أن جميع الطلاب الذين قبلوا كأعضاء فى الجماعات القائمة داخل المدرسة أصبحوا يساريين ، أما أولئك الذين ظلوا منعزلين بلا أصدقاء فقد أصبحوا أكثر محافظة . كذلك لا حظ أن الذين لم يتأكدوا من قبولهم أصبحوا متطرفين فى يساريتهم ، فى حين أن الذين حاولوا أن يجدوا القبول وفشلوا صاروا محافظين متطرفين ، بينما ظل الذين لم يحاولوا كما هم بدون تغير .

ومن الواضح أن مثل هذه التجربة تكشف بعض الشىء عن كيفية تأثير الجماعة فى الفرد . إلا أن عالم النفس الاجتماعى يريد فى هذا الصدد أن يجمع معلومات عن الجماعة كلها . وباستطاعته أن يعيد تنظيم النتائج التى حصل عليها فى بحوث مستويات الطموح فيضعها فى صورة جدول يبين كمية « الانتشار » حول النموذج السوى فى الجماعة . وأفضل شىء بالنسبة له بيان عام بدرجة الانتشار أو الالتقاء بالنسبة لكل اتجاه وكل رأى وكل مطمح ، وحبذا لو كان هذا البيان من نوع يمكن قياسه باستمرار .

المفكرة السرية Secret Agenda

من الصعوبات التى تواجه من يحاول تحليل سلوك الجماعة كوننا نعنى بالفرد

فى أغلب الأحيان حتى إننا لننزع إلى أن نرى الأشياء من وجهة نظره . أضرب مثلا يوضح هذه الحقيقة . يلاحظ فى الجماعات العلاجية therapy groups التى تتألف من أفراد يجتمعون بانتظام لمناقشة متاعبهم النفسية ، أنه كلما تقدم أحد الأعضاء باقتراح لمناقشة أحد الأعراض التى يشكو منها فإن الجماعة لا تلبث أن تنحى هذا الاقتراح جانباً دون نقاش . وعندئذ يمكن أن يقال من وجهة نظر الفرد إن هذه الجماعة غير تعاونية : ولكن بيون W. R. Bion يبين أننا نستطيع كذلك وبنفس الدرجة من الصدق أن نقول إن الجماعة متعاونة تماماً فى قمع أية مناقشة للأعراض العصابية . فهناك إذاً طريقتان للنظر إلى الجماعة ، والأفضل لعالم النفس الاجتماعى أن يتبع الطريقة الثانية .

فإذا ارتضينا لأنفسنا هذه الطريقة ، فإننا لا نلبث أن نلاحظ أن الجماعات تبدى أحياناً تصميماً على السلوك بطريقة ما كان لأى عضو من أعضائها أن أن يقبلها . وهذا هو المعنى الدفين فى قولنا إن للجماعة حياتها الخاصة المختلفة اختلافاً واضحاً عن حياة أعضائها . ولتفسير ذلك يمكن الرجوع إلى المبدأ الذى سبق لنا أن ناقشناه ، ألا وهو أن الناس يسلكون كما تملى عليهم حاجاتهم فى مجموعها ، بما فيها الحاجات التى يمكن وصفها تجاوزاً بأنها لاشعورية . وقد بينا كيف أن الأفراد فى الجماعات العلاجية يتحاشون مناقشة الأعراض العصابية ، وذلك لأن مناقشة هذه الأعراض تثير الشعور بالحصر — وتلك حقيقة يعرفها المحللون النفسيون . والجماعة تنزع إلى الابتعاد عن الشعور بالحصر ، ولكن بطريقة شعورية .

ومثل هذه الظاهرة تحدث كذلك فى الجماعات السوية كاللجان أو المجالس . فنجد الجماعة تقرر مناقشة موضوع معين ثم لا تلبث أن تتجاهله وتناقش موضوعاً آخر . وهذا ما جعل مين Main يتكلم عما أسماه « المفكرة السرية » للجماعة . فالجماعة تميل إلى تناول الموضوع الذى يشغلها ويقلقها فعلا ، لا الموضوع الذى يشعر الأعضاء أنه يجب عليهم مناقشته .

الخـــلاصة

والخلاصة أن للجماعة حياتها الخاصة التى لا يمكن اعتبارها مجرد مجموع

حياة أفرادها . وليس المهم فى هذه الآونة الاقتصار على البحث فى بعض المشاكل الخاصة مثل مشكلة ديناميات التفاعل داخل الجماعة أو العلاقة بين بناء الشخصية وحياة الجماعة ، ولكن المهم هو تحليل بعض الجماعات باعتبارها نماذج بارزة ، على أن يكون هذا التحليل عميقاً شاملا بحيث يمكننا من الوصول إلى تعرف دقائق التفاعل داخل الجماعة . وسنتبين فى هذا التحليل كيف أن طراز الجماعة يؤثر فى طريقة إنجازها للمهام الموكولة إليها . فالجماعات القلقة غير الآمنة لا تستطيع القيام بهذه المهام على الوجه الأكمل ولن تستطيع حتى تتخلص من دواعى قلقها . والجماعات ذات التقاليد الفاسدة والحضارات المشوبة والاتجاهات المشتتة تؤدى واجباتها على نحو سيء ، فهى تفشل فى أن تستغل قدرات أعضائها ، وتلقى كثيراً من العقبات فى كل سبيل يتطلب التعاون . وليس من زخرف القول أن نقول إن الجماعات قد تصبح مريضة ، وإنها قد تحتاج إلى الطبيب أحياناً .

م . س